اعتزال ابراهيم قومه بعدما أعياه النداء وكادوا يفتكون به

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

تسلط هذه الآيات المباركات الضوء على مسيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام، حيث يرسم القرآن الكريم مشهداً مؤثراً لحواره الحكيم واللطيف مع أبيه وقومه لدعوتهم إلى التوحيد، وكيف واجه إصرارهم على عبادة الأصنام بالصبر والثبات.

ويستعرض هذا المقطع القرآني قرار إبراهيم الحاسم باعتزال أبيه وقومه وما يعبدون من دون الله، ليثبت أن روابط الأبوة والنسب لا يمكن أن تقف عائقاً أمام إخلاص العبودية لله وحده. بل متى ما تحولت هذه الروابط إلى قيود تصد عن الحق، وجب على المؤمن مجاهدتها والتحرر من أسر الشرك والباطل، وهو المعنى العظيم الذي يقرره قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: 22)

وتُختتم هذه الحلقة ببيان سنة الله في جبر الخواطر وتعويض الصابرين؛ فحين ترك إبراهيم أهله وديارَه ابتغاء مرضاة ربه، أكرمه الله بعوضٍ عظيم فوهب له إسحاق ويعقوب، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فنشأت من نسله أمة مباركة تحمل لواء التوحيد عبر الأجيال.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) (41) وصفه الله بأنه "صديق" واللفظ صيغة مبالغة مشتقة من الصدق ، وينطبق على كل من آمن بالله ورسوله ، لقوله (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) (الحديد19)، قال ابن عاشور (غلب استعمال وصف الصديق استعمال **اللقب الجامع لمعاني الكمال** واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في **الوفاء بعهد الدين**)[1]، فمرتبة الصديقية هي ذروة الكمال البشري في طاعة الله ورسوله .

ويضيف الإمام الرازي أن الصِّدِّيق هو" الذي يتكرر منه الصدق في أقواله وأفعاله واعتقاداته حتى يصير له ذلك ملكةً راسخة ."ويؤكد الإمام الطبري أنه" الكثير التصديق بالحق، المبالغ في الصدق، الذي لا يشوب إيمانه شك، ولا عمله رياء."

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 72

ووصفه بأنه "نبي" أي ترقى من مرتبة الصديق التي تنال بالكسب والاجتهاد إلى مرتبة النبوة والوحي التي تنال بالاصطفاء

وتقديم وصف "الصديق" على "النبي" يحمل سرًّا تربويًا وإيمانيًا عميقًا؛ فالصِّدِّيقية مرتبةٌ تُنال بالمجاهدة، والعمل الدؤوب، وإخلاص الوجهة لله، أما النبوة فهي محض فضلٍ واصطفاءٍ من الله يختص به من يشاء، كما قال سبحانه : ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾

فلم ينل إبراهيم –عليه السلام– هذه المرتبة إلا بعد أن بلغ الغاية في الصدق والإخلاص، وتزكّت نفسه بالعبودية الخالصة، فتأهل لذلك ليكون محلًا لوحي الله ورسالته؛ فسُنّة الله الجارية أنه لا يصطفي لمقام النبوة إلا من بلغ الذروة في الصِّدِّيقية، فكل نبيٍّ هو بالضرورة صديقٌ كامل الصدق، وليس كل صديقٍ نبيًا.

ويعقب ابن القيم في مدارج السالكين بقوله إن" الصِّدِّيقية هي أعلى مراتب الخلق بعد النبوة، وهي الباب الأعظم الذي يلج منه العبد إلى رضوان الله، ولم ينل الأنبياء ما نالوه من الكرامة إلا بكمال صدقهم مع الله."

ويمكن استخلاص بعض الفوائد التربوية مما تقدم كما يلي : –

- **تزكية الباطن قبل تصدُّر المشهد** :تُعلّمنا الآية أن بناء الذات بالصدق والإخلاص في الخلوات هو الأساس المتين لأي رفعةٍ أو مسؤولية في الحياة؛ فمن أراد التوفيق في تبليغ الحق أو قيادة الخلق، فعليه أن يُصلح سريرته أولًا.
- **الصدق مفتاح التوفيق والاصطفاء** :إن العبد قد لا يبلغ مرتبة النبوة لانقطاع الوحي، لكن باب الصِّدِّيقية مفتوحٌ على مصراعيه؛ فكلما ازداد العبد صدقًا مع ربه، اصطفاه الله لطاعته، وفتح له أبواب الفهم، وجعله إمامًا في الخير.
- **الجمع بين العلم والعمل** :لم يكن إبراهيم –عليه السلام– صاحب معرفةٍ مجردة، بل كان صدّيقًا يصدّق قوله بفعله، ونبيًا يهدي الناس بعلمه؛ وفي ذلك تربيةٌ للدعاة والمصلحين على ضرورة تطابق السلوك مع الخطاب.
- **عظمة التدرج والترقي في المقامات** :تُبرز الآية أن الكمال الإنساني رحلةٌ من الترقي المستمر؛ يبدأها العبد بمجاهدة نفسه على الصدق والوفاء، فيتولاّه الله برعايته، ويرفعه إلى مقامات القرب والاصطفاء التي لم تكن تخطر له على بال.

في قوله تعالى :﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(مريم: 42)، تتجلّى معالمُ المنهج النبويّ الرشيد في الدعوة إلى الله، الذي يجمع بين الأسلوب العاطفي والعقلي في آن واحد ، ويتدرج في توسيع دائرة المخاطبين من الأقرب إلى الأبعد حيث ابتدأ خليلُ الرحمن إبراهيمُ –عليه السلام– مسيرتَه الإصلاحية بأقرب الناس إليه؛ فكان أبوه هو أول مَن وُجِّهت إليه أنوارُ الهداية، انطلاقًا من القاعدة الربانية الخالدة في البدء بالأقربين، تلك القاعدة التي امتثلها نبينا محمد ﷺ حين نزل عليه قول الله تعالى :﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214)؛ فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، ويَدْعُوهُمْ قَبَائِلَ قَبَائِلَ) [2]، ولهذا ابتدأ نبي الله توجيه دعوته لأبيه أولا تمهيدا لأن يوجهها لقومه وعشيرته ثانيا .

[2]) رواه البخاري ج11 ص 353 رقم 3263

تميز إبراهيم عليه السلام في دعوته برِفق البِرّ ولُطف الخِطاب

فلقد ضرب إبراهيم –عليه السلام– أروع الأمثلة في الجمع بين صلابة العقيدة ولين الجانب؛ فلم يترك أباه فريسةً للشيطان، ولم يواجه ضلاله بالتعنيف أو الجفاء، بل ناداه أربع نداءات متتابعة بصيغة التودد والتحبب :﴿يَا أَبَتِ﴾؛ استدرارًا لعاطفة الأبوة، وقيامًا بحق البِرّ والإحسان، وتأليفًا لقلبه كي يتهيأ لقبول الحق.

وقد وقف المفسرون عند هذه اللفتة التربوية البديعة وقفاتٍ متأنية؛ فيقول الإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير : (في تكرير قوله: (يا أبتِ) إظهارٌ للرأفة والشفقة، وإشعارٌ بأن ما يدعوه إليه إنما هو محض النصح له، وأن مخالفته إياه في الدين لم تُنقص من حقه عليه شيئًا».

ويؤكد الإمام القرطبي في تفسيره أن هذا الأسلوب هو أصلٌ في أدب الدعوة؛ إذ ينبغي للداعي أن يخاطب المدعوَّ بأرقِّ الألفاظ وأحبِّها إلى نفسه، ولا سيما إذا كان ذا رحمٍ أو فضلٍ أو كِبَرِ سِنّ.

مُخاطبةُ العقلِ بالبرهانِ الجليّ

فبعد أن طرق إبراهيمُ بابَ القلب بلطف النداء، طرق بابَ العقل بسؤالٍ استنكاريٍّ يهزُّ الوجدان ويوقظ الفطرة الغافلة :﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .إن منطق العقل السليم يقتضي أن يكون المعبودُ أرقى وأكمل من العابد؛ فكيف يليق بإنسانٍ وهبه الله السمع والبصر والإدراك، أن يخرَّ ساجدًا لجمادٍ أصمَّ لا يسمع دعاءه، وأعمى لا يبصر خضوعه، وعاجزٍ لا يملك له نفعًا ولا يدفع عنه ضرًّا؟!

وفي بيان وجه هذا الاستدلال العقلي، يقول الشيخ السعدي في تفسيره: «نهاه عن عبادة الأوثان، وبيَّن له وجهَ البطلان فيها، وأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئًا، لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة، فكيف يعبدها مَن هو أكمل منها خَلْقًا وعقلًا؟!».

كما أشار الإمام الرازي في مفاتيح الغيب (إلى أن نفي السمع والبصر ثم نفي الإغناء جاء على سبيل التدرّج في إبطال الألوهية؛ فمن افتقد أدنى صفات الكمال الحسي (السمع والبصر)، كان افتقاده للقدرة على النفع والدفع (الإغناء) من باب أولى)، مصداقًا لقوله تعالى في موضع آخر :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: 5)

ويمكن استخلاص بعض الدروس التربوية والدعوية فيما يلي :–

إن هذا الموقف الإبراهيمي يرسم للدعاة والمربين خارطةَ طريقٍ متكاملة في إصلاح النفوس وتقويم الاعوجاج، تتلخص في معالمَ تربويةٍ سامية:–

- **الجمع بين مفتاحَي القلب والعقل** : فالداعية الفطن لا يكتفي بإقامة الحجة العقلية الجافة التي قد تثير الكِبر والعناد، ولا يقتصر على العاطفة المجردة دون برهان، بل يمزج بينهما؛ فيلين القلب بالرفق وحسن الأدب (يا أبتِ)، ويستنير العقل بالحجة الهادئة التي تضع المدعوَّ أمام نفسه ليكتشف زيف ما هو عليه دون تجريحٍ لشخصه.
- **الاستفهام الاستنكاري وسيلةٌ لإزالة الغشاوة** :لم يبدأ إبراهيم أباه بالتكفير المباشر أو التقريع، بل طرح سؤالًا يدفعه للتفكير الذاتي؛ لأن الإنسان إذا اكتشف خطأه بنفسه كان أسرعَ للرجوع وأصدقَ في التوبة، مصداقًا لقول الله تعالى :﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).

- **التدرج في توسيع دائرة الإصلاح من الخاص إلى العام** : إن إصلاح الدائرة القريبة هو التوطئة الطبيعية والقاعدة الصلبة للانطلاق نحو إصلاح المجتمع بأسره؛ فمَن نجح في الصبر على دعوة أهله بالرفق والحكمة، كان أقدرَ على تحمّل أذى قومه ومجابهة باطلهم بالثبات واليقين.
- **تحرير الإنسان من التعلّق بالأسباب الواهية** :تُربّي الآيةُ المؤمنَ على أن يقطع رجاءه من كل ما سوى الله؛ فكما أن الأصنام الحجرية لا تغني شيئًا، فكذلك كلُّ ما يُعظَّم من دون الله من أسبابٍ ماديةٍ أو قوًى متوهّمةٍ تبقى عاجزةً فقيرة، ولا ملجأ ولا منجى إلا بالله السميع البصير القادر على كل شيء.

قوله تعالى: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) [مريم: 43] ارتقى نبي الله إبراهيم –عليه السلام– في معارج الخطاب الدعوي درجةً أخرى، متلطفًا في بيان ما وهبه الله إياه من فيض العلم الرباني الذي حُرم منه أبوه. وقد قرر بذلك سُنّة كونيةً ومنطقية، وهي أن من قصر علمه وجب عليه أن يأتمَّ بمن هو أعلم منه وأبصر، ثم كشف له عن مقصده النبيل، ألا وهو الرغبة الصادقة في انتشاله من وهدة الضلال إلى رحاب الهداية والصراط السوي.

وفي هذا المقام تتجلى فائدة تربوية ودعوية جليلة؛ إذ لا حرج على الداعية إلى الله أن يُعرّف بمؤهلاته العلمية ورسوخه في الحق حين يشرع في مخاطبة المدعوين، فذلك أدعى لإلقاء الطمأنينة في قلوبهم، وتوطين نفوسهم على التصديق والثقة. وللداعية أن يوازن بين نور العلم الذي يحمله وظلمة الجهل التي يتخبط فيها قومه، لا بدافع الاستعلاء الكاذب أو الانتصار للنفس، وإنما من باب كشف الغشاوة عن أبصارهم، وإشعارهم بأنهم غافلون عما أبصره، وذاهلون عما سمعه وفقهه.

غير أن هذا البيان يجب أن يُغلَّف بأدب التواضع الجمّ؛ لذا لم ينسب إبراهيم أباه إلى الجهل الفاضح، ولم ينسب نفسه إلى العلم المطلق، وإنما صاغ العبارة بأسلوب رقيق يبعث على القبول، وقد أشار الإمام الألوسي إلى هذه اللطيفة البلاغية قائلًا: "ولم يسِم أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له يكون أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق"[3].

ويؤكد الإمام ابن كثير هذا المعنى التربوي مبينًا أنه لم يقل له: أنا أعلم منك، بل قال: قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فكأنه يقول: نحن مشتركان في أصل العلم، ولكن اختصني الله بزيادة علم في هذا الباب، وهو منتهى الأدب مع الوالد.

وقوله: (فَاتَّبِعْنِي) يبرهن على أن دعوة الخليل لأبيه لم تكن دعوةً إلى تقليد أعمى أو تبعية جاهلة كما هو دأب المبطلين الذين يقدسون الموروث ولو كان باطلًا، وقد ذمّ القرآن هذا المسلك في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [البقرة: 170]. لقد ثار إبراهيم على سُنّة قومه في التبعية العمياء، وتصدّر ليكون إمامًا متبوعًا لا مقلدًا تابعًا؛ ليقينه الراسخ بأنه على الحق المبين، وأن قومه على الباطل المبين. فانتدب نفسه لتحمل أمانة هدايتهم بما اصطفاه الله به من الوحي، إذ لا خلاص لهم من أسر الشيطان إلا بالانقياد لما يحمله من نور العلم الإلهي.

---

[3]) تفسير الألوسي ج11 ص 498

وقوله: (أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) يرسخ حقيقة أن غاية الأنبياء والمصلحين عبر العصور واحدة؛ فطريق الحق طريقٌ سويٌّ معتدل، لا اعوجاج فيه ولا التواء، بل هو ممهّد للسالكين، صافٍ من شوائب الشرك، نقيٌّ من كدر الأوهام. وقد جمع القرآن في وصف طريق الله بين "الاستقامة" و"السواء"، وهي إشارة دقيقة لحال السالكين؛ فإن تاه السائر واضطربت خطاه أرشده القرآن إلى الطريق المستقيم، وإن تخبط في الظلمات واستوعر المسالك هداه إلى الصراط السوي، وكلاهما وصفٌ لحقيقة واحدة، مصداقًا لقوله تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 122].

قوله تعالى: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) [مريم: 44] هنا انتقل الخليل من الترغيب اللطيف إلى الترهيب الشديد، فغلّظ في التحذير مقبّحًا لأبيه ما هو مقيم عليه، ومكاشفًا إياه بحقيقة ما يصنع؛ إذ سمّى عبادته للأصنام عبادةً صريحة للشيطان، وحذّره من عاقبة الخروج عن منهج الله، مبينًا أن كل من والى الشيطان واتبع خطواته فقد استهدف لسخط الرحمن وعذابه، بقدر انغماسه في الغواية والاستجابة للإغواء.

ومن الفوائد التربوية في هذا المسلك القرآني: أن تقبيح الباطل وتسميته باسمه الحقيقي يورث في نفس العبد نفورًا فطريًا منه، ويحول بينه وبين الاستسلام لحبائل عدوه. فكل عبادة تُصرف لغير الله –سواء أكانت لصنم أم كوكب أم هوى– هي في حقيقتها عبادة للشيطان وطاعة له، لقوله تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [يس: 60]. فما دام العبد سائرًا في غير صراط الله، فهو يتقلب في شباك الشيطان، سواء أدرك ذلك أم جهله؛ لأن كل السبل المعوجة تنتهي إليه، ومن أخطر حبائله تزيين الأوثان التي أطلق عليها العرب أسماء الإناث، كما فضحهم القرآن بقوله: (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) [النساء: 117].

وهكذا تتسع دائرة عبادة الشيطان في واقع الناس لتشمل كل صور الاستعباد لغير الله؛ كاللهث المحموم وراء حطام الدنيا وشهواتها، والاستكبار بطلب الجاه والسلطان والمال، مصداقًا لحديث النبي ﷺ : "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ" رواه البخاري. ويقول سيد قطب في (الظلال) معلقًا على هذه الآية: "إن الذي يعبد غير الله إنما يعبد الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يزين له عبادة غير الله، وهو الذي يوسوس له بها، فطاعته له هي عبادته إياه".

وقوله (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) يضع الميزان القاطع لرفض اتباع الشيطان ولو قيد أنملة؛ إذ كشف عن هويته الحقيقية بأنه متمردٌ على خالقه، ومن كانت هذه صفته فليس أهلًا لأن يُطاع أو يُتبع. وقد جاءت لفظة "عَصِيًّا" على صيغة المبالغة[4] ؛ لتدل على أن المعصية ليست عارضًا يطرأ عليه، بل هي وصفٌ لازمٌ له وطبيعةٌ متجذرة في كيانه.

وفي ختام الآية لفتة بلاغية بديعة؛ حيث أضاف عصيان الشيطان إلى اسم الله "الرَّحْمَٰنِ" دون غيره من الأسماء الحسنى، ليُبرز بشاعة جرمه وقبح تمرده؛ إذ قابل فيض الرحمة الإلهية بالجحود والعصيان. وقد أجاد العلامة أبو السعود في تفسيره (إرشاد العقل السليم) حين كشف عن هذا السر قائلًا: "والاقتصارُ على ذكر عصيانه من بين سائر جناياتِه

[4]) الوجيز للواحدي ج1 ص 491

لأنه مَلاكُها، احترازًا عن موالاته وطاعته، والتعرضُ لعنوان الرحمانية لإظهار كمالِ شناعة عصيانِه"[5]؛ إذ لا أشنع من أن يُعصى المنعم المتفضل برحمته على عباده.

إن الاحتراز من طاعة الشيطان لم يمنعا النبي ﷺ من تصديق الشيطان فيما نطق به من حق؛ فالصدق يظل صدقاً وإن جرى على لسان الشيطان ذاته، ما دام لم ينفرد به، بل ثبتت صحته من طريق الصادقين. فخبر الصادق لا تضعف حجيته إذا وافقه كذوب، كما أن قول الكذوب لا يُردّ إذا صادف تصديق الصادق له؛ وذلك كما ورد في حديث تمثّل الشيطان لأبي هريرة رضي الله عنه حين أراد الأخذ من تمر الصدقة .

ففي حديث أبي هريرة قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ مَا هِيَ قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لَا قَالَ ذَاكَ شَيْطَانٌ)[6].

قوله (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (45) خاف إبراهيم على أبيه أن يمسه عذاب الله سواء كان هذا العذاب في الدنيا أم في الآخرة ، فيكون ملازما للشيطان في الجحيم قال الألوسي (الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب)[7]، يقصد الألوسي أن الولاية للشيطان هنا تعني المرافقة والمقارنة له في العقوبة، وليست الطاعة والانقياد له في المعصية. وبناءً على ذلك، فإن **مسّ العذاب هو السبب، ومرافقة الشيطان في هذا العذاب هي النتيجة المترتبة عليه.**

وقد يكون مس العذاب المقصود به العاجل في الدنيا ، فيكون خوفه عليه بغرض إظهار المزيد من الشفقة ، كما قال الشاعر : – فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحياناً على من يرحم

---

[5]) تفسير أبي السعود ج4 ص 314
[6]) رواه البخاري ج8 ص 102
[7]) تفسير الألوسي ج11 ص 500

أي أن إبراهيم أنذر أباه العذاب العاجل في الدنيا قبل الآخرة ، لأنه يتمنى أن يترك عبادة الشيطان ، ويدخل في ولاية الرحمن ، والمعنى أن من لم يزدجر من مس العذاب الدنيوي العاجل ، فإنه يسير في طريق عبادة الشيطان حتى يصير ملازما له في العذاب الأخروي وقرينه

وكذلك قد تكون الولاية المقصودة هو الطاعة والمتابعة ، كما في قوله سبحانه (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف/36) ، وذلك حين لا يرتدع مما يمسه من العذاب العاجل ، ويستكمل طريقه لغواية الشيطان ، فتكون ولايته للشيطان نتيجة للإعراض عن القرآن ، وتكون الولاية هي ذاتها عذاب من الرحمن ، قال تعالى (وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا) (النساء/38)

قال الرازي ترتيب ولاية الشيطان عقب ذكر عذاب الرحمن أن ذلك (يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم ، فما السبب لذلك . «والجواب» : أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال (ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم) [التوبة : 72] فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم)[8].

في قوله تعالى حكايةً عن خليله إبراهيم عليه السلام وهو يناجي أباه برفقٍ وشفقة :﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مريم: 45)،يبدو حرص إبراهيم على هداية أبيه ؛ إذ أدركته عليه السلام رعدةُ الخوف أن يناله طائفٌ من عذاب الله أو يحلَّ به سخطه، في الدنيا قبل الآخرة، فيؤول مصيره إلى الملازمة الأبدية للشيطان في دركات الجحيم.

وقد أجاد الألوسي في تفسيره (روح المعاني) حين حرّر هذا المعنى بقوله" :الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مسِّ العذاب"[9]. ومراده أن الولاية هنا ليست ولاية الطاعة والانقياد في المعصية؛ لأن أباه كان واقعاً فيها بالفعل، وإنما هي ولاية المقارنة والمرافقة في العقوبة والمصير؛ فيكون مسُّ العذاب سبباً، وتغدو صحبة الشيطان في النار نتيجةً حتميةً مترتبةً عليه.

كما يحتمل مسُّ العذاب ها هنا العقوبة العاجلة في الدنيا؛ فيكون إنذار إبراهيم لأبيه نابعاً من فرط الشفقة وصدق النصح، مصداقاً لقول أبي تمام:

فَقَسا لِيَزدَجِروا وَمَن يَكُ حازِماً ... فَليَقسُ أَحياناً عَلى مَن يَرحَمُ

فإنما لوّح له بالعذاب الدنيوي العاجل رجاء أن يثوب إلى رشده، ويخلع ربقة عبادة الشيطان، ليدخل في كنف الرحمن وولايته؛ إذ إن من لم يرتدع بمسِّ البلاء العاجل، تمادى في غيّه وسلك سبيل الشيطان حتى يغدو قرينه الملازم له في العذاب الأخروي. وهذا المعنى يعضده قول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)متفق عليه، فالإمهال والابتلاء العاجل فرصةٌ للرجوع قبل حلول الأخذ الأليم.

---

[8]) تفسير الرازي ج10 ص 315
[9]) تفسير الألوسي ج11 ص 500

ومن وجهٍ آخر، قد تُحمل الولاية على الطاعة والمتابعة والاستحواذ؛ وذلك حين يعمى القلب عن ذكر الله فلا يتعظ بالعذاب العاجل، فيستمرئ الغواية حتى يسلط الله عليه شيطاناً يلازمه ويقوده إلى الهلاك، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف: 36]. وحينئذٍ تصبح هذه الولاية والقرانة الشيطانية في ذاتها لوناً من أشد العذاب النفسي والروحي من الرحمن، كما قال جل وعلا :﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء: 38]، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى هذا المعنى الدقيق، مبيّناً أن إبراهيم خاف على أبيه إن أصرّ على شركه أن يلقى الله فيكون للشيطان ولياً وقريناً لا ينفك عنه، ولا ناصر له من دون الله.

ويلفت الإمام الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) الانتباه إلى سرٍّ بلاغيٍّ بديع في ترتيب ولاية الشيطان عقب ذكر عذاب الرحمن؛ إذ يقرر أن هذا الترتيب يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أشدَّ هولاً وأعظم وطأةً من العذاب نفسه! ويعلل ذلك بقوله" :إن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب، على ما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم ."[10]فكما أن القرب من الرحمن ورضوانه نعيمٌ يفوق نعيم الجنة الحسي، فكذلك الطرد عن بابه والوقوع في أسر الشيطان ومرافقته عذابٌ معنويٌّ يفوق في مرارته سائر العذاب.

في قوله تعالى :﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مريم: 46]، لم يكن ردُّ فعل والد إبراهيم عليه السلام على قدر اللطف والأدب الرفيع الذي خاطبه به ابنه؛ إذ قابله بسؤال المستنكرِ الغاضب، ثم تجاوز ذلك سريعًا إلى التهديد والوعيد ليحمله على ترك دينه، بل توعّده بالقتل رجماً بالحجارة؛ لتكون عقوبةً مؤلمةً رادعةً له إن لم يكفَّ عن نصحه ودعوته إلى التوحيد، ثم ختم تهديده بأمره بهجرانه والابتعاد عنه دهرًا طويلاً.

وقد بيّن المفسرون أبعاد هذا التهديد القاسي؛ **قال الإمام الطبري** في تفسير قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾: أي "أمعرضٌ أنت عن عبادة آلهتي وتاركها؟"، ثم بيّن **الإمام ابن كثير** معنى الوعيد بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: أي "لئن لم تنتهِ عن عيب آلهتي وسبّها لأقتلنّك رميًا بالحجارة"، وقيل: لأشتمنّك بالقول القبيح، وكلاهما يجمع القسوة والغِلظة. أما قوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، **فعن ابن عباس رضي الله عنهما** قال: "اجتنبني سالمًا قبل أن يصيبك مني عقوبة"[11]، وقال مجاهد: "مليًّا: أي دهرًا طويلاً."

وهكذا سلك أبوه آزر طريق الجفاء والقطيعة مع إبراهيم عليه السلام، رغم ما لمسه من ابنه من برٍّ وحنانٍ وشفقةٍ وهو على الشرك؛ فقابل الإحسان بالإساءة، واللين بالقسوة، والنصح بالترهيب، ليعطي القرآن الكريم بذلك صورةً حيّةً لصبر الدعاة في سبيل الله، وثباتهم أمام أذى الأقربين.

قوله تعالى :﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم: 47)؛ في هذا المقام الجليل لم يُقابل نبي الله إبراهيم عليه السلام جفاء أبيه بالجفاء، ولا قسوته بالغلظة، ولا تهديده بالرجم والهجر بمثله، بل قابله بأعلى درجات الحِلم والأدب النبوي. فقد بادر إلى إلقاء سلام المتاركة والموادعة.

---

[10]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2988

[11]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 264

ووعده بالاستغفار وطلب الهداية له قبل أن يُنهى عن الاستغفار للمشركين ، كما في قوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة 114) .

وقد قرّر أئمة التفسير من أهل السنة هذا المعنى، قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية، أي: (أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، ولكن سأسأل الله لك أن يهديك ويغفر ذنبك) .

وقال الإمام الطبري في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: "أَمَنَةٌ مني لك أن أُكافئك على قبيح قولك، أو أُبادئك بمكروه"، وهذا يُبيّن أن سلامه عليه السلام كان سلام متاركةٍ وكفٍّ للأذى، لا سلام تحيةٍ وإقرارٍ على الكفر؛ إذ لا يُبدأ المشرك بالسلام ابتداءً، وإنما هو كقوله تعالى في وصف عباد الرحمن :﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان 63) .

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم صاحب الدعوة؛ لا يقابل الإساءة بالإساءة، بل يدفع بالتي هي أحسن، مصداقًا لقوله تعالى :﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: 34). فأصحاب الدعوة الصادقون لا يلتفتون إلى ما يلقونه من أذى في سبيل الله، ولا يشغلهم الانتصار لأنفسهم عن غايتهم الكبرى، بل يترأفون بالمدعوّين ويشفقون عليهم رجاء هدايتهم وإنقاذهم من النار.

ويتأكد هذا الخُلق العظيم ويشتد وجوبه إذا كان المدعوّ من الوالدين أو ذوي الأرحام؛ فإن حق الوالدين عظيم وإن كانا مشركين، وغاية المسلم معهما أن يبرّهما ويصل رحمهما بالمعروف دون طاعتهما في معصية الخالق، كما قال سبحانه ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: 15). وقد تجلّى هذا الأصل الشرعي في السنة النبوية المطهرة؛ فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمُدَّتِهِمْ مَعَ أَبِيهَا فَاسْتَفْتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا قَالَ نَعَمْ صِلِيهَا)[12].

وفي قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: "لطيفًا"، أي: (في أن هداني لعبادته والإخلاص له)[13] ، حيث أظهر ثقته ويقينه بربه سبحانه بأن يجيب دعاءه، فالله تعالى لطيفٌ به، بَرٌّ رحيمٌ يُكرمه ولا يردُّ سؤاله.

وحفاوة الله بعباده ولطفه بهم عامة ، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19]، وهي صيغة عامة تشمل كل عباده.

والحفاوة قد تترادف مع المعية ، فتكون خاصة للمؤمنين .قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]، وهذه المعية تقتضي الحفظ، والتأييد، والكلاءة.

كما تعني القرب كناية عن سرعة إجابة الدعاء ، فمن مظاهر الحفاوة الإلهية أن الله يقترب من عبده إذا دعاه ويجيب مسألته دون واسطة، كما قال المفسرون في تفسير "حفياً" أي مجيباً لدعائي ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186) ، لاسيما حال الاضطرار .قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(النمل: 62)

---

[12]) رواه البخاري ج10 ص 451 رقم 2946

13) أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ج9ص264 ابن كثير ج5 ص 236 - وانظر : الدر المنثور ج6 ص 466

ومن مظاهر احتفاء الله بعبده فرحه به إذا عاد إليه تائباً، فيفرح بتوبته فرحاً يليق بجلاله، ويبدل سيئاته حسنات. كما في الحديث .قال النبي ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ...» متفق عليه.

ويتجلى هذا الفرح وتلك الحفاوة بأن يبدل الله سيئات التائب حسنات .قال تعالى في وصف عباد الرحمن التائبين: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: 70).

وهكذا يستبين أن الحفاوة متبادلة بين العبد وربه فهو يتودد إلى الله بالطاعات ، وهو يحتفي بهم بالقبول ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، ومَن تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وإذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» رواه البخاري.

في الحديث القدسي: «...وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...» رواه البخاري.

ومن علامات حفاوة الله بعباده المؤمنين أن يتولى الله الدفاع عنهم لاسيما في الشدائد . قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج: 38). ومن هنا تصير الحفاوة إلى ولاية ، فيخرجهم برعايته من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257).

وفي الأخير تتجلى مظاهر الاحتفاء بالعباد في الآخرة وعند الموت، حيث تتنزل عليهم الملائكة بالبشرى، ويستقبلهم الله بالكرامة في الجنة.

- فعند الاحتضار تبشر الملائكة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 30)
- وعند لقاء الله يستقبلهم الله في ضيافته ليدخلهم الجنة .قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]، والنُّزُل هو ما يُعدّ للضيف المكرم عند قدومه احتفاءً به.

قوله (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..) (48) اشتد الخلاف بين نبي الله إبراهيم –عليه السلام– وبين أبيه وقومه، وبلغ الخصام مداه حتى ألقوه في النار ليحرقوه، لولا أن تداركته عناية الله فجعلها بردًا وسلامًا عليه. وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد، أدرك إبراهيم أن الوقت قد حان لمفارقتهم، والنأي بنفسه عن شركهم وضلالهم. وقد أوضح الإمام الشنقيطي هذا المعنى بقوله: (اعتزاله إياهم هو مجانبته لهم، وفراره منهم بدينه)[14] .

والأصل في منهج المسلم ألا يغادر ميدان الدعوة والإصلاح وإن ناله أذى الناس، مصداقًا لقول النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[15]؛ فالمؤمن يعيش بين الناس ليؤثر فيهم لا ليتأثر بهم، يخالطهم بجسده، بينما يظل قلبه وروحه وفكره معلقًا بربه، يعاملهم بالحسنى

[14]) رواه ابن ماجة ج12 ص 39 رقم 4022 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 373 رقم 3257 صحيح الأدب المفرد للبخاري ج1 ص 162 رقم 388
[15]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 217

ويتحمل أذاهم، ويشاركهم شؤون حياتهم مع تنزهه التام عن مفاسدهم. غير أن اعتزال إبراهيم –عليه السلام– كان من باب هجر المنكر ومفارقة أهل الجهل بعد أن ضاقت به السبل وبلغ الكيد منه مبلغه بمحاولة قتله.

وعلى هذا النهج سار فتية الكهف حين قال الله تعالى على ألسنتهم :﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾(الكهف: 16). وكذلك كان شأن النبي ﷺ حين اعتزل أهل مكة وهاجر إلى المدينة المنورة بعد أن اشتد إيذاؤهم له؛ فقد كان اعتزاله فرارًا بدينه من دار الكفر، ثم ما لبث أن عاد إليها فاتحًا منتصرًا.

ومن هنا، تتجلى قيمة العزلة المؤقتة بوصفها ملاذًا محمودًا لإصلاح النفس وتجديد العزم. وقد سُئل بعض الحكماء عما يبتغيه أهل الخلوة باختيارهم العزلة، فأجاب: «يستدعون بذلك دوام الفكرة، وتثبيت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة». وقيل لآخر: «ما أصبرك على الوحدة!»، فقال: «ما أنا وحدي؛ أنا جليس الله تعالى، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت». وكان الفضيل بن عياض –رحمه الله– يقول: «إذا رأيت الليل مقبلًا فرحت وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح قد أدركني استرجعت؛ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني من يشغلني عن ربي) [16].

قوله (وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) (48) نلمس كيف استأنس نبي الله إبراهيم عليه السلام بمعية ربه في وحشة العزلة، فكان الدعاء أول ملاذٍ لجأ إليه حين همّ باعتزال قومه. وقد تضرع إلى الله أن يهيئ له ولذريته مستقراً تأوي إليه قلوب الناس؛ ليبدد عنهم وحشة الغربة، وأن يفيض عليهم من سعة رزقه، وهو ما تجلى في مناجاته الخالدة (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم 37) .

ولم يخيّب الله رجاء خليله، بل قابل صدق التجائه باستجابةٍ كريمَةٍ أشار إليها البيان الإلهي بقوله (وَهَبْنَا لَهُ) (مريم49)، ثم أتمّ نعمته بأن أفاض البركة على عقبه وذريته أجمعين بقوله سبحانه (وَوَهَبْنَا لَهُم)(مريم50).

قوله (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) (50) تأكيدًا على معنى العزلة يتضح أنها كانت ذات شقين ، فهي عزلتان ، عزلة قلبية حيث عزل قلبه عن الكفر ، وعزلة بدنية حيث تركهم وذهب بعيدا عنهم ، امتثالا لقوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (النساء/140)

ولما آثر إبراهيمُ عليه السلام رضا ربّه على أهله ووطنه، أجزل الله له العطاء، وعوَّضه خيراً مما ترك؛ فبارك في عَقِبه، واصطفى من ذريته الأنبياء، وجعل لهم ذِكراً حسناً وثناءً عاطراً في العالمين. وهذا مصداقُ القاعدة الإيمانية التي عبَّر عنها قتادة بقوله (لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا **أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك**)[17]

16) الدكتور : هاشم علي الأهدل : التربية الذاتية في القرآن ص 110 ، المفصل في شرح لا إكراه في الدين ج2 ص 222
17) جمع الجوامع للسيوطي ج1 ص 19643 رقم 2064 (أخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً)

وهذا المعنى الجليل هو ما أرشد إليه النبي ﷺ أُمَّتَه عند نزول البلاء وفقدان المحبوب، حيث علَّمهم أن يلوذوا بالله طالبين الخَلَف والأجر، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ " إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " **اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)**[18].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَصَابَتْ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ **اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي فَآجِرْنِي فِيهَا وَأَبْدِلْ لِي بِهَا خَيْرًا مِنْهَا)**[19]

ولم يقتصر العطاء الإلهي لإبراهيم وذريته على شرف النبوة فحسب، بل امتدَّ ليشمل سَعة الرزق والأمان؛ إذ جعل الله لهم حرماً آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء فضلاً منه ورحمة، كما امتنَّ سبحانه بقوله (**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا)** (القصص/57)

وقد أدرك الصحابة الكرام هذا الميزان الدقيق حين استقر الإيمان في قلوبهم؛ فلم تكن الدنيا غايةً يلهثون وراءها، بل اتخذوها مطيَّةً للآخرة وزاداً يتقوَّون به على الطاعة والجهاد في سبيل الله. ويتجلى هذا السموُّ في موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه حين قال قال : بعث إليَّ النبي ﷺ فأمرني أن آخذ على ثيابي وسلاحي ثم آتيه ففعلت فأتيته وهو يتوضأ فصعد إلى البصر ثم طأطأ ثم قال يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله وأزعب لك زعبة من المال صالحة قلت **إني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الإسلام** فأكون مع رسول الله ﷺ فقال يا عمرو **نعم المال الصالح للمرء الصالح)** [20].

كذلك امتد عطاء الله ليجعل سيرته عطرة على ألسنة الناس ، فعن ابن عباس في قوله (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) المراد به (**الثناء الحسن**)[21] ، وقال الواحدي (ثناءً حسناً رفيعاً في كلِّ أهل الأديان)[22] ، و(هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله)[23]، قال ابن القيم (**فلما كان الصدق باللسان** وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقا وعبر به عنه)[24].

---

[18]) رواه مسلم ج4 ص 475 رقم 1525
[19]) رواه أبو داود ج8 ص 381 رقم 2712 وصححه الألباني ج صحيح وضعيف سنن أبي داود ج7 ص 119 رقم 3119 ، وصحيح ابن ماجة 1598
[20]) رواه البخاري في الأدب المفرود ج1 ص 112 رقم 299 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص127 رقم 299
[21]) الدر المنثور ج6 ص 466 ، تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 265
[22]) الوجيز للواحدي ج1 ص 492
[23]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 414
[24]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 23